

علم البَلَاغَة من التقييد إلى التحرير



م.د. حنان علي محسن

كلية التربية للعلوم الصرفة / ابن الهيثم

جامعة بغداد

تميّز العرب بالفصاحة والبَلَاغَة عن سائر الأقطام، فجاء الإعجاز القرآني مرتكزاً على هذه الميزة، ليُقيم عليهم الحُجّة، ويضعهم في مواجهة مباشرة مع بَلَاغَة لغتهم وفصاحتها. خدم أصحاب البَلَاغَة من العلماء والمفكرين علوم البَلَاغَة العربية (المعاني، والبيان، والبديع) في دراساتهم، فلم تخرج البَلَاغَة عندهم من حدود هذه العلوم، وذكر الدكتور صلاح حاوي في كتابه (تحرير البَلَاغَة، بحث في الذّاكِرَة) مجموعة اقتراحات أو تحالفات على حد تعبيره تهدف الى تحرير البَلَاغَة من العلوم الأخرى مثل: النقد، وعلوم القرآن، وعلوم اللغة. ويرادوني سؤالٌ عن السبب الذي جعل بعض الباحثين يرون أن البَلَاغَة القديمة بَلَاغَة مقيدة وغير قابلة للتطوير والتجديد! على الرغم من أن البَلَاغَة القديمة كانت تشترك مع العلوم الأخرى حتى تنفتح وتخدم نفسها وتخدم العلوم، ولقد علا صوت علم البَلَاغَة عند الجاحظ في البيان والتبيين، وعند عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز، وعند السكاكي في مفتاح العلوم وكثير غيرهم.

مع هذا اقترح الدكتور صلاح حاوي في كتابه (تحرير البَلَاغَة بحث في الذّاكِرَة) مفهوماً جديداً يفترض فيه (علم البَلَاغَة الاجتماعي) إذ يرى أن فرضيته ليست بالمراهنة الخطيرة، أو المبالغة في شق صفوف علم البَلَاغَة بشكل عام، لوجود مبررات تحكم هذه المراهنة، أو هذا الافتراض منها التأكد من العلاقة المتينة بين البَلَاغَة والمُجتمَع، وتدفع الخطّابات القادرة على تقديم تصورات عن المُجتمَعات وافرادها وتشكّل

الجماعات فيها عبر آليات وفنون بلاغية تغذي تلك الخطابات.

إن ذلك يستدعي ربط مفهوم علم البلاغة الاجتماعي ببلاغة الجمهور التي اهتمت ببيان موقف المُتلقّي من الأحداث، فضلا عن أساليب التأثير والتأثير البلاغية، فقد ارتبطت بالتواصل الفعّال بين المتكلم والجمهور. ومع تطور الدراسات البلاغية ظهر هذا المفهوم الذي يركّز على دور المُتلقّي في عملية التواصل، إذ لم يعد المُتلقّي عنصراً يتلقى الخطاب بل أصبح ذا تأثير فاعل يُسهم في تشكيل المعنى وتأويله، ومن هنا جاءت أهمية دراسة بلاغة الجمهور من أجل فهم العلاقة التفاعلية بين الخطاب والمُتلقّي.

فما بلاغة الجمهور وما ربطها بعلم البلاغة الاجتماعي؟ لأبد من الوقوف عند بلاغة الجمهور التي يُقصد بها بلاغة أو دراسات بلاغية تركز على دور الجمهور أو التلقي في فهم الخطاب وتأويله وتأثيره به، وكيف يراعي المتكلم خصائص الجمهور الفكرية والثقافية والنفسية عند صناعة الخطاب، ويمكن تعريف بلاغة الجمهور بأنها: العلم الذي يدرس العلاقة بين الخطاب والمُتلقّي، ويبحث في كيفية توجيه الرسالة اللغوية بما يتناسب مع خصائص الجمهور لتحقيق التأثير والإقناع، إذ ترتبط فكرة بلاغة الجمهور بالفكر البلاغي القديم والحديث، فقد أشار البلاغيون القدماء إلى ضرورة مراعاة حال المخاطب، وهو ما يظهر في قولهم: "لكلّ مقام مقال"، كما أنّ علم المعاني في البلاغة العربية يقوم أساساً على مراعاة مقتضى الحال، أي مراعاة حال المخاطب والظروف المحيطة بالكلام.

تظهر أهمية بلاغة الجمهور في جوانب عدة،

من أهمّها: تحقيق الفهم الصحيح للخطاب، إذ يساعد مراعاة الجمهور على توصيل المعنى بوضوح، فضلاً عن زيادة قوة التأثير والإقناع، فالخطاب الذي يراعي طبيعة الجمهور يكون أكثر تأثيراً، وتحقيقاً للتواصل الفعّال؛ لأنّ نجاح عملية التواصل يعتمد على التفاعل بين المتكلم والمُتلقّي، وتوجيه الخطاب على وفق مستويات المُتلقّي، فخطاب العامة يختلف عن خطاب العلماء أو المتخصصين.

أما أوجه الربط بين بلاغة الجمهور والبلاغة الاجتماعية فتتركز في:

أولاً الاهتمام بالمُتلقّي

لأنّ كلا المفهومين يؤكّد أهمية المُتلقّي في العملية البلاغية؛ فبلاغة الجمهور تركز على الجمهور بوصفه مُتلقياً مباشراً للخطاب، في حين تنظر البلاغة الاجتماعية إلى المُتلقّي بوصفه عضواً في مُجتمع معين تحكّمه قيم وثقافة محددة.

ثانياً: ارتباط الخطاب بالسياق

يشارك المفهومين في التأكيد على أنّ الخطاب لا يفهم بمعزلٍ عن السياق، بل يتحدّد معناه عن طريق: السياق الثقافي، و السياق الاجتماعي، وطبيعة الجمهور وهذا ما يجعل البلاغة الحديثة تتجاوز حدود تحليل النص إلى دراسة الظروف المحيطة به.

ثالثاً: تحقيق التأثير والإقناع

الهدف الأساسي من البلاغة هو التأثير في المُتلقّي، وهذا التأثير لا يتحقّق إلا بفهم طبيعة الجمهور والبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، على سبيل المثال الخطاب الديني يراعي القيم الدينية للمُجتمع، والخطاب السياسي يراعي التوجّهات

رابعاً: التكامل بين الفرد والمجتمع

تركز بلاغة الجُمهور على الفرد المتلقي، بينما تركز البلاغة الاجتماعية على المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الفرد، ومن هنا يمكن القول: إن العلاقة بينهما علاقة تكامل؛ لأن فهم الجُمهور يتطلب فهم السياق الاجتماعي الذي ينتمي إليه، بهذا المعنى يحضرنى ما فعله السفسطائيون في المجتمع اليوناني، فقد اشتهروا ببلاغتهم العالية في الخطابة والاقناع، واستطاعوا حث المجتمع على تزييف الحقائق واتباع الأوهام.

استند الدكتور صلاح حاوي في اقتراحه على الوظيفة الاجتماعية لاسيما في خطاب الجاحظ عن بلاغة المقموعين، والخروج من بلاغة الأسياد وولاة الأمور، كما ذكر بلاغة السود أو الموالى أو البرصان، والعُميان، والعُرجان، والحولان، والبُخلاء، فضلاً عن مفاخر السُودان على البيضان، وبهذا انشغل الجاحظ بخطاب المهتمشين اجتماعياً، إذ لم يكن الخطاب في هذه البلاغة نخبوياً ولا سلطوياً، وعطف على الوظيفة الاجتماعية للبلاغة والاهتمام بهذه الوظيفة؛ كونها تهتم بدراسة البُنَيَات البلاغية المتكّمة بالمجتمع، المتسرّبة في نظمها وأنساقها الاجتماعية، والثقافية فهذا الاهتمام هو صورة الوظيفة الاجتماعية، وهو الذي يحدد إطار مفهومها وقدرتها على الظهور.

ولا ننس أن تحالفات التحرير؛ هي: تحالف البلاغة مع السيميائية، وتحالف البلاغة مع علم الاجتماع، وتحالف البلاغة والمعرفة، وتحالف البلاغة والدراسات اللسانية، وتحالف البلاغة والدراسات الثقافية، باعتقاده إن هذه التحالفات ستمنح البلاغة هويتها وتبعدها عن التقييد، وعن

طريق الكتاب المذكور نُبين ما لهذه التحالفات من دور في تحرير البلاغة.

ارتكز التحالف بين البلاغة والسيميائية على العلاقة بين التفكير البلاغي في الكلمة وتحولاتها المجازية، فضلاً عن التفكير بالنظم وسياقاته، ومن جانب آخر اهتمت السيميائية بالتفكير في العلامة بوصفها متكونة من الدال والمدلول، والرابط المعنوي بين انشغال السيميائية بدراسة العلامة وانشغال البلاغة بدراسة الكلمة والجمله، بينما كان للعلامة دورٌ بما قدّمه الجاحظ عن مراتب البيان وتقسيم العلامات إلى لغوية وغير لغوية، وما يهمني هو العناية بالمفاهيم للعلامات غير اللغوية مثل (الإشارة، والحظ، والحال، والعقد).

وقد اهتم التحالف بين البلاغة والمعرفة بقدرة المفهوم البلاغي على أن يكون مفهوماً معرفياً، وهذا يستدعي الصبر في تنفيذه من أجل فهم نظرية المعرفة البلاغية، وكيفية انتاج وظيفة لها.

جاء التحالف بين البلاغة والدراسات اللسانية التي استندت إلى الفائدة التي قدّمها الدرس اللساني للبلاغة مثل لسانيات ياكوبسن والتداولية بتوجيهاتها المتعددة وإعادة النظر ببناء التراكيب كأسلوب الخبر والانشاء، فقد بدأ اللسانيون العرب يقترّبون من دائرة البلاغة ويمنحونها شيئاً من الثراء، إذ شكّل الدرس البلاغي وظيفة التحليل الخطابية وهذا ما نجده في وظائف الإقناع، والجدل، والحجاج.

تحالفت البلاغة والدراسات الثقافية، إذ اختصت هذه الدراسات بالمجال المعرفي للمنهج الثقافي من المنظور الاجتماعي - السياسي أكثر من الجمالي، وتميزت بثلاثة معانٍ: إنها تضع نفسها بجانب من لا يوفر لهم البنى الاجتماعية سوى النزر اليسير،

فهي ليست حيادية؛ بل لها مَيْلٌ نحو فئة محددة وهي الفئة المهمشة اجتماعياً وسياسياً. وتهدف إلى تعزيز التجارب الثقافية والاحتفاء بها، فهي تحلّل الصيغ الثقافية ودعامتها الاجتماعية، فضلاً عن التعامل مع الثقافة بوصفها جزءاً من الحياة اليومية.

وانطلاقاً من هذه المعاني نحن أمام مهام الدراسات الثقافية والخِطابات التي تهتم بدراستها وعلى وفق هذا التعريف والمفهوم يتضح أنّ طبيعة هذا التحالف الذي تعقده مع علم البلاغة أو ميزات هذا التحالف الذي نقترحه لعلم البلاغة لاسيما أننا نبحت عن المفهوم بين التراث والذّاكرة، وتخوم المعرفة بين البلاغة والدراسات الثقافية تمنح الخِطابات الشعبية او المهمشة مساحة في امتلاك قوة المواجهة والصدام مع بلاغة الخِطابات النخبوية فضلاً عن وجود ثقافة الجمهور أو الجماهير وكيفية العناية باستجاباتهم؛ والاعتراف بهذا التحالف والاستغناء بعض الشيء عن فهم الذّاكرة.

الدراسات الثقافية تتجلى اليوم عبر مجموعة من الاتجاهات البلاغية المعاصرة مثل بلاغة الايديوغراف، والبلاغة التأسيسية، والبلاغة الناقدة التي تغير نوعية الخِطابات وتعيد تأسيسها بلاغياً. هذا الانفتاح أتاح مجال الاقتراح لعلم البلاغي الاجتماعي أو علم البلاغة المعرفي أو السياسي الذي ينشغل بموضوعات تعيد نفسها داخل منظومة بلاغية معاصرة.

ونعود إلى تحالف البلاغة مع علم الاجتماع الذي عرض له الدكتور صلاح حاوي فصلاً كاملاً أسس فيه أرضية لانطلاق علم البلاغة الاجتماعي، فما الوظيفة الاجتماعية للبلاغة؟ اعتمد على تحديد

هوية هذه الوظيفة ومحل اشتغالها في محاولة استكشاف المحطة الأولى، أما المحطة الثانية فهي معاصرة البلاغة في عصر النهضة، والمحطة الثالثة أبعاد هذه الوظيفة والاتجاهات البلاغية المعاصرة التي تؤمن بوجودها.

الارتباط الذي جمع بين البلاغة والمجتمع في عصر التنوير هدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيداً، هذا الذي قاد إلى تجديد في البحث البلاغي الذي راح يؤكد أهمية الوظيفة الاجتماعية، قد اتسع وانتشر هذا التفكير عند أحمد ضيف وأمين خولي وسلامة موسى الذين تحدثوا عن التغيير الاجتماعي الذي ساق إلى تغير الخطاب وجعل البلاغة أداة للتوجيه الاجتماعي، ونشر الأفكار والمباحث الاجتماعية، إذن؛ هذا ما جعل مفهوم الوظيفة الاجتماعية للبلاغة إعادة تكوين الصورة والعلاقة بين البلاغة والمجتمع.

وقد ذكر الدكتور صلاح حاوي أنموذجاً عن الظواهر الاجتماعية التي تُعد خطاباً بلاغياً اعتنت بها بلاغة الجمهور، ومنها: ظاهرة التصفيق بوصفها إحدى الاستجابات التي يستطيع الجمهور إنتاجها في سياق التفاعل مع خطاب المتكلم، وظاهرة الطقوس الدينية في المجتمع العربي وتحولها إلى خطاب بلاغي يحقق وظيفة بلاغية عبر وظيفة الاقناع، فضلاً عن الفعل الحجاجي وقيّمته البلاغية ثم محاولة التحرر من الهيمنة.

بهذا انفرد كتاب (تحرير البلاغة، بحث في الذّاكرة) بالتنظير لاقتراح يخدم البلاغة ويخلصها مما علق فيها من العلوم الأخرى، وعلى حد تعبير الدكتور فاضل عبود صاحب مقال «تحرير البلاغة، نحو خطاب بلاغي متعدد الرؤى»: (ترديد القراءة أن تحرر البلاغة على مستوى المفهوم والأدوات

والوظائف، وهذا صلب فاعلية هذا الكتاب المبني على قراءة الماضي وتأمل الحاضر، والنظر إلى المستقبل بعين ناقدة، وصولاً إلى بدء التحرير من المفاهيم بوصفها حاضنة المصطلحات؛ تلك التي تريدها البلاغة الجديدة أدوات للإجراءات مع وقف الاعتماد على الذاكرة التي ظلت تشحننا بوعي مزيف طيلة قرون).

والسؤال الذي أود طرحه هنا، لماذا يريد الدكتور صلاح حاوي تحرير البلاغة؟ هل باتت البلاغة القديمة غير مجدية؟ وبالرجوع إلى بلاغة العرب عند الجاحظ الذي بين قوة الخطاب الفلسفي الإسلامي، تلكم البلاغة ذات الحافظة المتعددة الصور المتخيلة، فضلاً عن قدرة الذاكرة العربية على بيان إمكانيات البلاغة في وقتهم، ولنا في التراث طائفة من البلاغيين الذين حفظوا لنا ذاكرة حافلة بالإمكانيات، ورسخوا أسس البلاغة العربية، وهم على الترتيب التاريخي:

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي أسس الوظيفة اللفظية للبلاغة العربية عبر مجموعة الأخبار وتحليل تلك الأخبار والحكايات.

أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) الذي صرح بمصطلح علم البلاغة كي يكون مفتاحاً لفهم الإعجاز القرآني.

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) الذي خدم البلاغة العربية عبر منظومة اصطلاحية مطبقة على نصوص محللة تحليلًا بلاغيًا.

السكاكي (ت ٦٢٦هـ) قدم للبلاغة العربية القيمة المعرفية في تقسيمه العلوم البلاغية إلى (المعاني، والبيان) وبهذا أعلن عن وجود علم البلاغة.

حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) الذي شخص الوظيفة للدرس البلاغي عبر صناعتي الشعر، والخطابة مما جعل الوظائف البلاغية قابلة للتغيير والتطوير.

ابن طباطبا العلوي (ت ٧٤٥هـ) الذي قدم في طرازه علوم البلاغة الثلاثة: (البيان، والمعاني، والبديح) وقد جمع بين منهج الجرجاني التحليلي ومنهج السكاكي في التنظيم الاصطلاحي.

إن الإجابة على السؤال المطروح آنفاً باتت واضحة، إذ إن القراءات والإشارات وطبيعة التفكير العربي القديم ثم إعادة إنتاجه، تُعد إسهامات في مجال البلاغة الثري، ولا ريب أنها قراءات تفتح الباب للنقاش والتحاور في أروقة علم البلاغة التي تحمل ذاكرة يُميزها حاوي عن التراث، حيث يذكر أنها مرحلة زمنية آتية بعده، أي بعد التراث، لها خصائص ووظائف مختلفة عن خصائص التراث ووظائفه؛ لأن مفهوم الذاكرة مختلف عن مفهوم التراث، إذ أن التراث منقطع ويشكل الأسس المعرفية التي يفترض أن نتغذى منها، لكن الذاكرة متواصلة وحقيقتها تعتاش على هذه الأسس وتقدم نفسها بديلاً عنها. الذاكرة قراءة شارحة مستمرة للتراث تقدمه بصورة متعددة، ويؤكد حاوي أننا نعيش في زمن الذاكرة منفصلين جداً عن التراث ولا علاقة لنا به إلا بوجود الذاكرة، فقد أعلنت نفسها وسيطاً في علاقتنا مع التراث.

ومصاديق مفهوم الذاكرة التي عبر عنها الفكر الفلسفي الأرسطي والإسلامي أن تكون عضوية أو استرجاعية، وصارت تُصنّف على شكلين؛ الذاكرة الفردية، والذاكرة الجماعية التي طورها عالم الاجتماع الفرنسي موريس هالبوكس، ومنها يبدأ الحديث عن الذاكرة والتاريخ أو الحديث عن

الذَّاكِرَة بوصفها حاضنة التاريخ ومنطقة سرده، وهذا الشكل من أشكال الذَّاكِرَة هو المتعلِّق والمتمثِّل للأحداث والشخصيات التاريخية، فهي ذاكرة الجماعة ومظهر هويتها، ومن ثمرة العناية ببحث الذَّاكِرَة التاريخية أن ارتبطت بها مجموعة من النظريات تبعاً لحقوق المعرفة منها نظرية الأطر الاجتماعية، ونظرية التذكُّر الاجتماعي، والذَّاكِرَة الشعبية، والذَّاكِرَة المضادة، والذَّاكِرَة الثقافية وغيرها، وقد أسهمت نظرية موريس هالبوكس في الذَّاكِرَة الجماعية في توصيل أفكار دوركهايم في الإبداع الجماعي لتكون تفسيراً تأسيسياً يمكن البشر من بناء الهوية الجماعية وتوحيد طبقات المجتمع ثقافياً، ومن ثم ضمان بقاء الأنواع، حيث

الترابط بين الهوية والذَّاكِرَة، فالذَّاكِرَة مفتاح الهوية ومصدرها الأوَّلِيّ، وهي التي تصوغنا ونحن بدورنا نعمل على صياغتها، وتصنعنا ونحن نصنعها؛ فالذَّاكِرَة ليست هي الماضي أو الزمان بل هي وعينا المستمر بالماضي ومحاولة الارتداد المستمر إليه، ولذا صارت الذَّاكِرَة تمثِّلنا وتمثِّل بها؛ لأنَّها هي المسؤولة عن وعينا، وهذا يدلُّ على أن الذَّاكِرَة ليست أمراً سلبياً نحاول التخلُّص منه، لكنَّ الفهم البشريُّ لها حسب ما يريد، هو ما يمكن عدُّه أمراً سلبياً؛ ولذا فإنَّ سوء استعمالها سيشكِّل وعياً مزيفاً يلزِمنا التحرر منه أو إعادة بناء علاقات جديدة بين الذَّاكِرَة والمعرفة الحاضرة في العلوم ومجالات المعرفة.